التابع بين نداء المركز واستجابة الذات الثائرة (إدوارد سعيد أنموذجا)

The subaltern between the call of the center and the response of the rebellious subject: Edward Said is a model

الدكتورة: زكية عرعار

قسم اللغة والأدب العربي

المدرسة العليا للأساتذة ورقلة (الجزائر)

arar.zakia@ens-ouargla.dz

تاريخ الإيداع: 2023/04/15 تاريخ القبول: 2024/03/12 تاريخ النشر: 2024/03/15

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى طرح ومناقشة لا حقيقة فكرة التابع من جهة، وكذا حقيقة واقعها من جهة أخرى. باعتبار أن مفهوم التابع يتأرجح بين ماهو استجابة لنداء المركز، وبين ماهو استجابة لنداء الذات الثائرة والمتمردة على الأعراف السائدة بفعل قوة المركز، هذه الذات ممثلة في أعمال رواد الخطاب مابعد الكولونيالي " إدوارد سعيد، هومي بابا، غاياتري سبيفاك ..." الذين سعوا في جلّ دراساتهم إلى تفكيك أسطورة السيد والتابع.

الكلمات المفتاحية: التابع، المركز، مابعد الكولونيالية، الاختلاف، الاستشراق.

Abstract:

The present study aims to discuss and tackle the no reality of the subordinate idea on one hand, and the fact of its reality on the other hand.Considering that the concept of the subordinate swinging between what is a response to the call of the center, and what is a response to the call of the rebellious self against the prevailing norms due to the power of the center.This self is represented in the works of the pioneers of post-colonial discourse: Edward Said, Homi Baba, Gayatri Spivak... who sought in most of their studies to deconstruct the master and follower legend

.

Keywords: Subaltern. centre. postcolonialism. The difference. Orientalism.

المقدمة:

لعلّه أول سؤال يتبادر إلى ذهن القارئ، وهو معذور في ذلك، هو إمكانية قيام دراسة إشكالية حول قضية نالت حظها من الدراسة والنقد والتحليل، حتى أن نتائجها أصبحت من ضمن المسلّمات، وهي قضية التابع. إلا أنّ المتمعن في المنجز الفكري لمن سمّي تابعا سرعان ما يدرك تلك المفارقة القائمة بين المصطلح والمفهوم من جهة، وبين المفهوم وتطبيقاته من جهة أخرى.

ومن المعلوم أنّ ظهور فكرة التابع مرتبط أساسا بالخطاب الحداثي الغربي، الذي ساهم مساهمة فعّالة في ولادة المشاريع الاستعمارية، هذه التي فنّدت نتائجها الحقائق التي قامت عليها، وأبرز هذه الحقائق ثنائية الذات والآخر وما انجرّ عنها. وعلى هذا الأساس سنعمل في هذه المداخلة على تتبع بدايات فكرة التابع، وإلقاء الضوء على الظروف السياسية التي ساهمت في ولادتها، وكذا رصد أهم التحوّلات التي طرأت عليها، وكل ذلك من خلال طرح الإشكال التالي: من هو التابع؟ هذا الذي تتطلب الإجابة عنه طرح ومناقشة النقاط التالية:

1/ التابع....المرآة

2/ التبعية ثقافة اختلاف

3/ حقيقة واقع صورة التابع

4/ أصناف التابع

1/ التابع ...المرآة:

"التابع" من إفرازات المنظومة الفكرية الاستشراقية التي بُنيت على رؤية ثنائية مفادها أنّ "الذات" هي "المركز" و"الآخر" هو "التابع"، كانت هذه من أهم النتائج التي أكّدها الدرس الثقافي في الحقبة المتأخرة، متمثلة أساسا في أعمال المفكر العابر للثقافات "إدوارد سعيد Edward w. Said" وكان ذلك في الوقت الذي أقرّ فيه بأنّ الشرق في الاستشراق <<شبه اختراع أوروبي>>[1]. تكشف هذه النتيجة عن قضية جد

مهمّة مفادها أنّ الاستشراق الغربي والدراسات التقويضية التي مثّلت فترة ما بعد الحداثة وما انجرّ عنها من تيارات تفكيكية أبرزها تيار ما بعد الكولونيالية، لا يزيدان عن كونهما مرآة عاكسة للوعي ولا يمكن بحال من الأحوال فهم أحدهما بمعزل عن الآخر، باعتبار أنّ المرآة <<من حيث هي تجربة إنسانية، فهي على درجة كبيرة من العمق والتعقيد معا، لأنها ترتكز على ضربين من الديالكتيك أو الجدل لا ينفصل أحدهما عن الآخر، هما ديالكتيك الأنا-الآخر>>[2].

وبالنظر إلى النتائج المتوصل إليها في خطاب ما بعد الكولونيالية، والتي أعاد من خلالها نقاد ومفكرو هذا التيار بناء صورة للذات والآخر على حد سواء وفق رؤية تخالف المنظور الغربي الذي تم الكشف عن خباياه الرامية إلى الحطّ من قيمة الآخر، اعتبر "إدوارد سعيد" الشرق بالنسبة لأوروبا <<مصدر حضاراتها ولغاتها، ومنافسها الثقافي، وهو يمثل صورة من أعمق صور الآخر وأكثرها تواترا لدى الأوروبيين، أضف إلى ذلك أنّ الشرق قد ساعد في تحديد الصورة المضادة، والفكرة والشخصية والخبرة المضادة [...] فالشرق جزء لا يتجزأ من الحضارة المادية والثقافة الأوروبية>>[3]، ما يؤكد بأنّ صورة الشرق في استشراق "سعيد" تختلف إلى حد التباين عن صورته في الاستشراق الغربي، وهي صورة جدلية قوامها الذات والآخر، ما يؤكد في الوقت ذاته بأنّ الذات عينها كآخر.

وعلى ضوء هذه الثنائيات وما تعكسه من قضايا الهوية والاختلاف، يُطرح التساؤل التالي: من هو التابع؟ هل هو الذات الشرقية في الكتابات الاستشراقية أم هو الذات الغربية في الكتابات التفكيكية ما بعد الكولونيالية باعتبار أنّ صورتيهما، لم تُعرف معالمهما إلا <<على ضوء فعل الانعكاس المرآوي وما يتضمنه من ازدواج، المماثلة والمغايرة، الهوية والاختلاف، العينية والغيرية، الذاتية والآخرية... وغير ذلك من ثنائيات يتوقف قطباها كل منهما على الآخر توقفا جدليا متبادلا>>[4].

وتتطلب الإجابة على التساؤل المطروح في هذا السياق خوض غمار قضية أكثر عمقا هي قضية فلسفية بامتياز تتمثل في <<فهم الوجود بعامة، والوجود الإنساني في العالم وبين الأشياء ومع الآخرين بخاصة، هذا الفهم الذي يتألف في الغالب من تصوّرات وأفكار مجردة>>[5]، باعتبار أنّ الاهتمام في هذه الدراسة منصب على فهم التصوّرات والأفكار التي أفرزت فكرة التابع في حد ذاتها، فإذا كانت <<الأفكار من نتاج الوجود الاجتماعي>>[6] وهي الرؤية الماركسية التي اعتمدها العديد من النقاد

لإثبات العلاقة الجدلية القائمة بين الإيديولوجيا والمجتمع، فإن هذه الدراسة تسعى إلى تقصي حقيقة قلب هذه الرؤية لاختبار مدى فاعلية الأفكار والتصوّرات في خلق الإنسان هذا الذي أصبح <<في العالم المتقدم وفي العالم المتخلف على السواء، إنّما "يوجد" في عالم من الصور>>[7].

2/ التبعية ثقافة اختلاف:

أصبح من المعلوم أنّ جدلية الأنا والآخر قائمة على مبدأ الاختلاف الثقافي الذي ولّد بدوره ثقافة اختلاف جسّدتها ثنائية التابع والسيد، والاختلاف كما هو متعارف عليه مبدأ وجودي مصداقا لقوله تعالى:<<ولو شاء ربك لجعل النّاس أمّة واحدة ولا يزالون مختلفين (118) إلاّ من رحم ربك ولذلك خلقهم...>>[8].

ولقد حمل مصطلح "الاختلاف" أوجه عديدة في العرف البشري لعلّ أبرزها الاختلاف على مستوى اللغة والدين والثقافة والجنس... وعلى أساس هذا المفهوم يتوجب أخذه-أي الاختلاف-<< كفرضية للاغتناء والمعرفة بين البشر>>[9]، هذا الغرض تحث عليه الآية الكريمة في قوله تعالى: << يا أيّها النّاس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنّ الله عليم خبير>>[10] ما يعني أنّ الدافع الأساس للمعرفة يتجاوز كونها سلاحا في الخطاب الاستشراقي-على حد تعبير جاك دريدا Derrida Jaques- إلى كونها وسيلة لتحقيق فهم للكون يكشف عن وجود وعي عميق بطبيعة العلاقة القائمة بين سائر موجوداته، والوعي عموما كما يعرّفه "هيغل Hegel " <<عبارة عن علاقة دائمة بـ"الآخر" الذي هو الموضوع أو الطبيعة أو العالم>>[11] هذا "الآخر" الذي يعدّ المرآة التي من خلالها تدرك الذات ذاتها وحقيقتها، باعتبار أنّ <<النفس لا تستطيع معرفة نفسها بدون النظر إلى نفس أخرى غيرها>>[12] ولقد أكّد "أدغار موران Edgar Morin " على هذه الحقيقة في قوله <<إن لم تكن هناك أنوات "أخرى" فليس هناك "الأنا">>[13] وعليه يمكن القول بأنّ هذه التعددية التي يجسدها الاختلاف الثقافي تحوي الوحدة، أي إنسانية البشرية، وفي هذا السياق اعتبر "هيغل" العالم بمثابة <<المرآة التي نتعرف فيها على أنفسنا، ولذلك فإنّنا حين نقرأ تاريخ العالم، أو تاريخ الموضوعات التي يدركها الوعي فإنّنا في الحقيقة إنّما نقرأ تاريخ الوعي ذاته>>[14].

ما يؤكد بأنّ الاختلاف بهذا المعنى مبدأ وجودي يتطلبه قيام علاقة (شراكة) بين الذات والآخر، يخوضان معا غمار معرفة الذات لذاتها، باعتبار" أننا لا نعرف أنفسنا إلا عندما لا نعرف إلا أنفسنا" وتكون بذلك <<الوحدة المتحققة من خلال هذه العلاقة وحدة خلاقة دينامية تقوم على "الاختلاف" و"الغيرية" كما تقوم على التبادل في العلاقة بين العارف والمعروف>>[15].

إلا أنّ الناظر في المنجز الفكري النقدي لمرحلة ما بعد الحداثة يدرك طبيعة العلاقة بين الذات والآخر، والتي سبق وأن حددها "إدوارد سعيد" بعدّها علاقة شراكة بين طرفين أحدهما قوي فاعل والآخر ضعيف مفعول به، ولقد كشف الراحل "عفيف فرّاج" في كتابه "ثنائية شرق غرب" عن جذور هذه التركيبة في قوله <<منذ اليونان حتى اللاتين وصولا إلى يومنا هذا يستمر الغرب في تأليه الذات وتحقير الآخر>>[16]، وعليه فإن مفهوم الاختلاف الثقافي بعدّه <<ظاهرة أنطولوجية، أي منفصلة عن الذات التي تمارس النظر والتحليل والحكم>>[17] قد اتخذ بعدا إمبرياليا وارتدى لباس السيطرة والقوة، هذا الزيّ الجديد كان نتيجة حتمية لذلك <<السجال بين الجانبين-هذا الذي-لم يكن معرفيا أو علميا خالصا وإنّما شابه الكثير من النوازع الإيديولوجية>>[18].

ولما كان <<التقابل بين المسلمين أو العرب والغرب مرتكز الخطاب الاستشراقي فإن المسألة ليست في الاختلاف بين الفريقين فهو مفروغ منه، لكنه في نوع الاختلاف أو في سلّم القيم التي ينهض عليها، أو بتحديد أكثر في النزعة الشوفينية أو التحيّز الماثل في وضع الآخر الشرقي هنا مقابل الذات الغربية في موضع دوني أو سلبي بحيث يبرز تميّز الذات>>[19]، ولقد كشف "إدوارد سعيد" في كتابه "الاستشراق" عن سلّم القيم هذا في سياق حديثه عن طبيعة العلاقة القائمة بين المعرفة والسلطة، وعلى هذا الأساس الذي يقدّس الذات الغربية ويمجدها في حين يدنس الآخر ويحقره، جاءت صورة التابع بالمفهوم الذي حدّده "غراميشي Antonio Gramsci " للتابع بعدّه "صاحب المنزلة الدنيا".

وعليه فإنّ فكرة "التابع" فكرة إمبريالية استلزمتها ضرورة وجودية الغرض من ورائها تأكيد صحة التصور القائل بالتفوق الغربي مقابل تخلف الآخر، ما يجعلها لا تزيد عن كونها صناعة غربية وحقيقة بالمفهوم النيتشوي للحقيقة، هذه

التي تتجسد أساسا في اللغة، وحقيقة اللغة ما هي إلاّ <<جيش متحرك من الاستعارات والكنايات والتشبيهات بالإنسان، وباختصار مجمل علاقات بشرية قامت عوامل شعرية وبلاغية بالارتقاء بها وتبديل مواقع أجزائها وتجميلها، فأصبحت تبدو بعد طول استعمالها (حقائق) صلبة وفقهية وملزمة لشعب من الشعوب، ما الحقائق إلا أوهام نسي المرء أنّها كذلك في الواقع>>[20].

ولقد ساهمت الحقائق بهذا المفهوم مساهمة فعّالة في تبرير الحركات الاستعمارية التي شنّها الغرب ضد الآخر، بعدّه متخلفا يحتاج إلى من يأخذ بيده لبلوغ مرحلة من التقدم تؤهله لمواكبة التطوّرات الراهنة، وكانت هذه الحركات بمثابة المرآة حيث أنها قدّمت فعلا مزدوجا، فهي من جهة عكست التصوّر الغربي عن الذات والآخر، وفي الوقت نفسه كشفت عن صورة للذات والآخر مغايرة ومعاكسة تماما لما عبّرت عنه، وكانت هذه بداية تقويض التصوّرات الغربية، وتمت بذلك عملية تهشيم المرآة الذي تزامن مع ظهور حركات تحرّر المستعمرات.

ومن خلال هذا الطرح الذي يسعى إلى تحديد مفهوم مبدأ الاختلاف في ضوء العلاقة القائمة بين الذات والآخر يمكن القول بأن فكرة التبعية (التابع) جاءت نتيجة التصوّر الغربي لمبدإ الاختلاف الذي لم يقتصر فيه اختلاف الآخر على الحضور الأنطولوجي المنفصل عن الذات الدّارسة، بقدر ما أصبح من خلاله اختلاف الآخر <<اختلافا كما تراه الذات، أي الذات محكومة، كما قال كانط Kant بما قبلياتها، بتصوّرات مسبقة أو ممّا سمّاه فوكو Foucault "شيفرات الثقافة">>[21]. وباعتبار أنّ <<ثقافة الاختلاف هي ما ينتجه الفرد الباحث أو الذات المتأملة حين تقوم بالبحث في الاختلاف الثقافي أو تتأمله وتتخذ موقفا تجاهه>>[22]، فإن ما نخلص إليه هو أنّ التابع وفق التصوّر الغربي لا يزيد عن كونه ثقافة اختلاف تتغير بتغير المنظور الذي يحدد مفهوم الاختلاف، وعليه فإنها ليست فكرة مطلقة ثابتة تعبّر عن حقيقة وجودية (لا واقعية فكرة التابع).

3/ حقيقة واقع صورة التابع:

ولما كانت المقاومة الفكرية التي أبداها نقاد ومفكرو ما بعد الكولونيالية نتيجة الاختلاف القائم بين التصوّر الغربي للذات والآخر الذي تضمنته الخطابات الغربية من جهة وبين التصوّر الذي تمت معاينته من خلال الواقع الذي ولّدته

الحركات الاستعمارية وليدة التصوّر الغربي من جهة أخرى، فإنّ هذه المقاومة وقعت هي الأخرى في أشراك المفهوم الإمبريالي للاختلاف ما جعل ثقافة الاختلاف الناتجة عن هذه الرؤية تدور في فلك صراع عقيم بين مؤيد ورافض. ولعلّ ما يؤكد ذلك هو إمكانية قيام مشروع فكري ثقافي عند الذات (آخر الغرب طبعا) يحمل التسمية نفسها التي تمّ نفنيد مضمونها في فترة ما، وهو مشروع "دراسات التابع" هذا الذي ضمّ مجموعة من المفكرين والنقاد الهنود، انصب جلّ اهتمامهم على محور يعتبر أساسيا في عملية إعادة بناء صورة للذات والآخر مصدرها الواقع الذي ولّدته المشاريع الحضارية ليُكشف بذلك عن تناقض رهيب بين الفكر والواقع، هذا المحور هو "إعادة كتابة التاريخ من وجهة نظر من استعمروا". ولقد حقّقت هذه الدراسات نتائج هامة في الدرس الثقافي، اذ اعتبر المفهوم الذي قدّمه "هومي بابا Homi K. Bhabha " (وهو أحد المؤسسين) للثقافة نقلة نوعية تحرر الثقافة من بعدها الأحادي الذي جعلها تتسم بالنقاء، إذ أكّد "بابا" أنّ موقع الثقافة هو البين بين، وأقرّ "إدوارد سعيد" بمصطلح الهجنة الثقافية.

إلاّ أنّ مشروع "دراسات التابع" ارتبط ارتباطا وثيقا بالمفكرة الهندية "غاياتري سبيفاك Gayatri Spivak " وذلك من خلال دراستها التي أكسبتها شهرة واسعة في الوسط النقدي، الموسومة بـ"هل يمكن للتابع أن يتكلم؟"، هذا الاستفهام الإنكاري الذي يحمل في طيّاته الإجابة عن نفسه، وهي أنّ التابع لا يمكنه أن يتكلم، وهو بالفعل ما أثبتته "سبيفاك" في نهاية مقالتها، وإن تكلّم فسيتكلم بلغة السيد-على حد تعبير أحد أقطاب دراسات التابع وهو غايان باركاش -وفي هذا الإقرار تأكيد لصحة التصوّر الغربي عن الذات والآخر. وسرعان ما اتسع نطاق دراسات التابع ليشمل كل كتابات نقاد ومفكري العالم الثالث (آخر الغرب)، وتوالت الكتابات التي تجعل من الرؤية التي يحملها مصطلح "التابع" منطلقا لها، ولعلّ أبرزها في الثقافة العربية ما قدمته "رضوى عاشور" في كتابها "التابع ينهض" ويعدّ ارتباط مصطلح "التابع" بـ"ينهض" خير دليل على أنّ "التابع" باعتباره منجزا فكريا غربيا فعلا يمثل حقيقة الذات (آخر الغرب) هذا النوع من الدراسات ساهم إلى حدّ بعيد في جعل فكرة التابع اللاواقعية تتسم بالحقيقة. وفي هذا السياق يحضر قول "إدوارد سعيد" <<الشرق الحديث يساهم في صبغ نفسه بصبغة "الشرق" الاستشراقية>>[23].

ولقد أدى هذا النوع من التفكير الناقد إلى بروز مجال فكري قد يكون أفضل المتاح على وجه الأرض وهو النقد الذاتي، إذ تحددت معالم هذا الاتجاه في كتابات الخطاب النقدي ما بعد الكولونيالي، هذا الذي أرسى دعائمه "إدوراد سعيد" وجلّ نقاد ومفكري العالم الثالث الأكفاء، ويكمن الهدف وراء هذا النقد غير المسبوق في الكشف عن استمرارية الهيمنة الغربية في مرحلة الاستقلال، معلنا عن نهاية الاستعمار الخارجي وبداية استعمار داخلي يمكن اعتباره أشدّ خطورة من سابقه، وتعدّ فكرة النقد الذاتي هذه مرحلة مهمة وخطوة ضرورية لإعادة بناء الذات بناء يتجاوز الانفتاح إلى حدّ الذوبان والانغلاق إلى حدّ العزلة. وبالنظر إلى هذا المنجز يمكن التمييز بين صنفين لمن سمّي تابعا.

4/ تصنيفات التابع:[24]

ولما كانت فكرة التابع لا تزيد عن كونها مرآة عاكسة للتصوّر الغربي للذات والآخر، وأنّ الغرب عنوان الحضارة، وما نتج عن هذه الرؤية من مشاريع استعمارية "حضارية"، فإن أفكار مثل الثورة والتحرّر والاستقلال حطّمت أسطورة الغرب المعلّم، وتهشمت بذلك المرآة العاكسة، وبتهشيمها إلى أجزاء جسّد كل جزء صورة متكاملة مستقلة ومختلفة إلى حدّ التباين عن الصور التي تقدمها الأجزاء الأخرى ولم تقتصر هذه الأجزاء على "الأنا" الغربية بقدر ما شملت "الآخر" التابع، ولقد كشفت عن أنواع وتصنيفات جسّدت مفهوما للاختلاف يكشف عن البعد الإمبريالي الذي ألبسه له الغرب ويتجاوزه في الوقت نفسه إلى اتخاذه مبدأ وجوديا إنسانيا، وضرورة من ضروريات الحياة وحفظ البقاء، بل هو مصدر للاغتناء بين البشر-على حد تعبير أدغار موران- كما سبق وأن أشرنا، <<فالذات تفقد نفسها إذا لم تخرج من نفسها>>[25].

فبين التصوّر الغربي الذي يتّخذ من الاختلاف ذريعة لفرض سلطانه على الآخر، وبين الاتجاه المقاوم الذي يسعى إلى جعله ،أي الاختلاف، وسيلة لحفظ البقاء وفرضية للاغتناء، يمكن التمييز بين صنفين لمن سمّي تابعا هما:

1-التابع المتمرّد:

يحوي هذا الصنف جلّ المهتمين بالخطاب ما بعد الكولونيالي الذين فكّكوا التصوّرات الغربية، وفضحوا حقيقة الذات والآخر، وخير من يجسد هذا الصنف " إدوارد سعيد " قال عنه كمال أبو ديب << إن في كل شيء يمسّه " إدوارد سعيد " بفكره لفوحا من عظمة الإنسان، وشيئا من روح إبائه ووعيه الضدّي المتفجّر اللامهادن >>[26].

ولقد مثّلت كتابات "إدوارد سعيد" تمرّدا حقيقيا على أسس الخطاب الغربي، وشكّلت منعطفا حادا في مسيرة الفكر العالمي، إذ قوّض أسطورة " المركز والتابع " وذلك في الوقت الذي أقرّ فيه بأن الاستشراق << إسقاط ثقافي لعقيدة سياسية على الشرق >>[27] هذه العقيدة هي التي خلقت التابع وجعلته يتبوأ << مكانة ثانوية عرقيا وثقافيا، ووجوديا وحُصر فيها، بيد أن هذه الثانوية هي بمقارنة ضدية، جوهرية بالنسبة لأولوية الأوروبي >>[28]. ويعدّ كتاب " الاستشراق " الممثل الشرعي لفكر سعيد، حيث قال عنه << يشرّفه على الأقل أنه جنّد نفسه صراحة في النضال >>[29] النضال ضد الاستعلائية الغربية وما نتج عنها من حقائق لا تتجاوز في أصلها المفهوم النيتشوي للحقيقة. ولقد غيّر هذا النقد وجه البحث العلمي حول العرب والعالم الثالث إجمالا- على حد تعبير أحد الدارسين- و<< ارتقى بالعالم العربي المثقل بمظالم الاستعمار وبراثن التخلف، إلى مصاف "السؤال العالمي" >>[30].

فسعيد إذن هو<< النهضوي والمتمرد على الثقافة الغربية عامة، والثقافة المتضمّنة لكل عناصر الإمبريالية والهمجية خاصة>>[31]، ومردّ هذه القوة التي تميّز بها إلى تكوينه المعرفي والعلمي القوي الذي أتاح له استيعاب أساسيات الفكر الغربي وتقديم نقد لها من منطلق ربطها بواقعها السياسي، وبذلك مثّل "سعيد" أهم الردود العربية على الاستشراق << وأخطرها وأشملها [...] و"سعيد" يرد بلغة المستعمِر واستنادا إلى مراجعه ومناهجه ومخزونه الثقافي الثري وأدواته المعرفية النقدية الفاعلة>>.[32]

ولعل مرجعيته الغربية هذه جعلت ردّه مؤثرا وقوّيا وله صدى عالمي، ومن هذا المنطلق يصف "سعيد" ما قام به في كتابه الاستشراق أنّه: << دراسة للطرائق التي تنظر بها السلطة والبحث العلمي والمخيّلة الخاصة بتقاليد عمرها قرنان من الزمان في أوروبا وأمريكا إلى الشرق الأوسط والعرب والإسلام>>[33]، وهكذا مثّل النقد السعيدي للخطاب الاستشراقي نقلة مميَّزة ومميِّزة لمفهوم الاستشراق، حيث أعيدت

صياغته من جانب من استعمِروا، ومن جهة أخرى كان فاتحة لظهور بوادر نقد جديد لا يقتصر على إبراز الجوانب الفنية والجمالية للنصوص، بل يتعدّاها إلى الكشف عن البعد الثقافي والسياسي المكوّن للنص، وعُدَّ الاستشراق تبعا لذلك، في نظر العديد من النقاد << نقدا ثقافيا مضادا لكل البديهيات المؤمنة بكل أصولية نزَّاعة إلى المركزية الأوروبية بوصفها مصدر إشعاع تغمر بضيائها كل الثقافات الأخرى>>[34].

2/ التابع المسلوب:

يندرج تحت هذا الصنف مجموع المفكرين الذين اتخذوا من الغرب منهجا فكريا لإنتاج حداثة عربية، إذ يعتبر إدوارد سعيد << أن التكّيف بين الطبقة المثقفة وبين الإمبريالية الجديدة يعدّ انتصارا من انتصارات الاستشراق الخاصة [...] فالعالم العربي اليوم تابع فكري وسياسي وثقافي يدور في فلك الو م أ>>[35] ولعلّ الدور الأساس لهذه النخب يكمن في تكريس الرؤية الغربية عن الذات والآخر، وفي هذا السياق يقول "برهان غليون" << الثقافة الغربية انتشرت في بلدان العالم الثالث بعد الاستقلال أكثر بكثير مما انتشرت قبله >>[36]، وهذا يكشف عن وجود اغتيال كامل للعقل، وهو ما عبّر عنه المفكر الأردني "جوزيف مسعد" بـ "الاختراق الكولونيالي للفكر العربي" وذلك من خلال اهتمامه بدراسة أثر الفكر الاستشراقي الغربي على المفكرين العرب وهذا ما أشار إليه في كتابه "اشتهاء العرب" إذ كشف من خلاله عن << الكيفية التي استحوذت وهيمنت من خلالها الابستيمولوجيا والمناهج الاستشراقية على الفكر العربي في أغلبيته منذ القرن التاسع عشر، وكيف لعب الاستشراق دورا رئيسيا في إنتاج الحداثة الفكرية العربية >>[37]، ولقد أدى هذا الوضع إلى نشوء أزمة فكرية في العالم العربي المعاصر نتيجة الصراع الذي قام بين من يعتبر الغرب السبيل الأوحد إلى الحضارة والرقيّ وبين من يراه تهديدا لوجود الذات وكيانها وفكرها وثقافتها... وعلى هذا البحر تسبح الكتابات والدراسات الفكرية العربية والنقدية التي جسدتها ثنائيات: الحداثة والتقليد، المعاصرة والتراث، الأصالة والإبداع... متناسين البحر الذي أخذ شيئا فشيئا يغرقهم ويذهب بهم إلى القاع، وهذا ما جعل الفكر العربي يدخل في دوامة وجدل عقيم، لأنه لا المؤيد للغرب عمل على إبراز وجود الذات وتعميق رؤيتها للواقع والوصول بها إلى مصاف الدول المتقدمة، ولا وُفِق المعارض للفكر الغربي في شق طريق للتطوّر والرقي بعيدا عن الرؤى الغربية، فكلهم يسبحون في مضمار الغرب، وفي هذا السياق يقول "برهان غليون": <<إنّ الفكر العربي بمفهومه الاجتماعي كان أيضا فكرا

يخدم في التحليل النهائي تعميق خضوع المجتمع العَربي للغرب وللمجتمع الرأسمالي السائد وهذا لأنه بقي فكرا هامشيا، وعجز عن أن يستقل بنفسه ويكون محاولة للردّ على تدهور هو نفسه منخرط فيه حتى النهاية>>.[38] وعلى هذا الصنف ينطبق مصطلح التابع بكل ما يحمله من معاني.

ولنا أن نضيف صنفا آخر وهو:

3: **التابع البائس**: وهو الذي جسّد صورته خير تجسيد "فرانس فانون Frantz Fanon " في كتابه "معذبو الأرض" وإن لم تتحقق التبعية في تلك الحقبة إلا بفعل قوة المستدمر الغاصب، ويشمل هذا الصنف كافة الشعوب التي ترزح تحت نير نظم استبدادية غاشمة.

الخاتمة:

من خلال الطرح الذي تقدم نخلص إلى نتيجة جد مهمّة مفادها أن فكرة التابع لاتزيد عن كونها صناعة غربية اقتضتها ظروف سياسية معينة، ولعب فيها "الاختلاف" دورا تأسيسيا، ما يثبت بأنها مجرد انعكاس للوجود الاجتماعي الذي ولّده الفكر الغربي. في حين أنّ هذه الفكرة أثّرت بدورها في التأسيس لوجود اجتماعي عالمثالثي، اقتضته الرؤية الفكرية التي جعلت من الفكر الغربي منارة ومنهجا لحداثة عربية خاصة وعالمثالثية عامة. وعليه يمكن القول بأنّ فكرة التابع ابتدئت خيالا وانتهت واقعا.

---

[1]- إدوارد سعيد:الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، ط: 1، 2006، ص: 320.

[22]- محمود رجب: فلسفة المرآة، دار المعارف، القاهرة: ط: 1: 1994، ص: 109.

[3]- إدوارد سعيد: الاستشراق، ص: 43-44.

[4]- محمود رجب: فلسفة المرآة، ص: 117.

[5]- نفسه، ص: 08.

[6]- مايك جونزاليس: كارل ماركس النظرية والممارسة، تر: ضي رحمي وأشرف عمر، وحدة الترجمة – مركز الدراسات الاشتراكية، ص: 4.

[7]- محمود رجب: فلسفة المرآة ، ص: 174.

[8]- سورة هود: الآية، 118-119.

[9]- إدغار موران: ثقافة أوروبا وبربريتها، تر: محمد الهلالي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط: 1، 2007، ص: 27-28.

[10]- سورة الحجرات: الآية: 13.

[11]- محمود رجب: فلسفة المرآة، ص: 201.

[12]- نفسه، ص: 56.

[13] - أدغار موران: النهج: إنسانية البشرية/ الهوية البشرية، تر: هناء صبحي، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة للنشر والتوزيع، ط: 1، 2009، ص: 91.

[14]- محمود رجب: فلسفة المرآة، ص: 201.

[15]- نفسه، ص: 155.

[16]- عفيف فرّاج: ثنائية شرق غرب، دار الآداب، بيروت، ط: 1، 2008، ص: 8.

[17]- سعد البازعي: الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، ط: 1، 2008، ص: 9.

[18]- نفسه، ص: 16.

[19]- نفسه، ص: 131.

[20]- فريديريك نيتشه، نقلا عن: إدوارد سعيد: الاستشراق، ص: 43، 44.

[21]- سعد البازعي: الاختلاف الثقافي، ص: 183.

[22]- نفسه، ص: 9.

[23]- إدوارد سعيد: الاستشراق، ص: 493.

[24]- تمخضت هذه التصنيفات من خلال نقاشات مطوّلة مع الأستاذ بلقاسم مالكية: أستاذ برتبة بروفيسور من المدرسة العليا للأساتذة ورقلة- الجزائر.

[25]- فلسفة المرآة، ص: 199.

[26] - إدوارد سعيد: الثقافة والامبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط: 3، 2004، ص: 14.

[27]- مجموعة من المؤلفين: النقد والمجتمع: حوارات مع: رولان بارث، بول دي مان، جاك دريدا، نورثروب فراي، إدوارد سعيد، جوليا كريستيفا، تيري ايجلتون، تر: فخري صالح، الناشر: دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، دمشق-سوريا، ط:1، 2004، ص: 116.

[28]-– إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، ص: 126.

- يحي بن الوليد: الوعي المحلق- إدوارد سعيد وحال العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،2010، ص: 25.

[29]

[30] - نفسه، ص: 8-9.

[31] – يحيى عمارة: إدوراد سعيد المثقف الكوني بين التاريخ والنظرية الأدبية، جريدة القدس العربي، العدد 6257، السنة: 21، 2009/07/17.

[32] – عفيف فرّاج: ثنائية شرق غرب، في مرايا: فريديريك هيغل، برتراند راسل، بول كينيدي، روجيه غارودي، إدوارد سعيد، جيلبير الأشقر، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط:1، 2008، ص:209.

[33] – إدوارد سعيد: الاستشراق، ص: 500-501.

[34] - إدوراد سعيد المثقف الكوني بين التاريخ والنظرية الأدبية، ورقة بحثية سابقة الذكر.

- إدوارد سعيد: الاستشراق، ص: 489. [35]

- برهان غليون: اغتيال العقل، ص: 108. [36]

[37] - جوزيف مسعد: اشتهاء العرب: ترجمة: إيهاب عبد الحميد، مراجعة وتحقيق: محمد عبد الكريم أيوب، دار الشروق، مصر، ط:1، السنة: 2013، ص: 10.

[38] – برهان غليون: مجتمع النخبة، ص: 138-139.

ببليوغرافيا البحث:

أدغار موران:

- ثقافة أوروبا وبربريتها، تر: محمد الهلالي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط: 1، 2007.

- النهج: إنسانية البشرية/ الهوية البشرية، تر: هناء صبحي، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة للنشر والتوزيع، ط: 1، 2009.

إدوارد سعيد:

- الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة:1، السنة 2006.

- الثقافة والإمبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت-لبنان، الطبعة:3، السنة 2004.

برهان غليون:

- مجتمع النخبة: معهد الإنماء العربي، بيروت-لبنان، الطبعة:1، السنة 1986.

- اغتيال العقل: محنة الثقافة العربية بين السلفيّة والتبعيّة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، الطبعة:6، السنة 2012.

جوزيف مسعد:

- اشتهاء العرب: ترجمة: إيهاب عبد الحميد، مراجعة وتحقيق: محمد عبد الكريم أيوب، دار الشروق، مصر، الطبعة: 1، السنة: 2013.

سعد البازعي:

- الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة:1، السنة 2008.

عفيف فرّاج:

- ثنائية شرق غرب، دار الآداب، بيروت، ط: 1، 2008.

مايك جونزاليس:

- كارل ماركس-النظرية الممارسة، ترجمة: رحمي ضي وأشرف عمر، وحدة الترجمة، مركز الدراسات الاشتراكية.

مجموعة من المؤلفين:

- النقد والمجتمع: حوارات مع: رولان بارث، بول دي مان، جاك دريدا، نورثروب فراي، إدوارد سعيد، جوليا كزيستيفا، تيري ايجلتون، ترجمة: فخري صالح، الناشر: دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، دمشق-سوريا، الطبعة:1، السنة 2004.

محمود رجب:

- فلسفة المرآة، دار المعارف، القاهرة: ط: 1: 1994.

يحي بن الوليد:

- الوعي المحلق- إدوارد سعيد وحال العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دون طبعة، السنة 2010.